بلاغة الغموض و آليات التأويل للخطاب

أ.د.معمر حجيج – جامعة باتنة

الملخص

يحاول هذا المقال الكشف عن بلاغة الغموض، ومنهج التأويل للخطاب العربي القديم من خلال عملية تكثيف الرمز وإخفاء تركيبة اللغز، وتواري توزيع مكونات المعمى، وترتبط هذه الأساليب غير المباشرة بفكر فلسفي وبلاغي قديم وحديث.

ويلاحظ أن بلاغة التأويل تتوزع على الخطابات القديمة بجميع أنماطها الشعرية والنثرية، وهذا يدل على ثراء الفكر البلاغي العربي، وأصالته في استحداث ما لانهاية من الأساليب البلاغية التي تضفي الحيوية والجدة الدائمة ،والبحث عما يمتع من الخطابات غير المألوفة التي تستثير ذكاء المتلقي وحدسه وخبرته في الإحاطة بتداوليته من خلال مقصدياته ومقتضياته المنطقية والحدسية.

Résumé :

Cet article tente de détecter toute l'éloquence du mystère et de la méthodologie de l'interprétation de l'ancien discours arabe à travers le processus d'intensification du code et de cacher le puzzle et cacher ses combinaisons de distribuer les composants aveuglés, et relie ces méthodes indirectes de la pensée philosophique et rhétorique antique et moderne.

Il est à noter que l'interprétation de l'éloquence est distribué dans les discours ancienne collection de modèles de la poésie et de la prose, et cela montre la richesse de la pensée rhétorique arabe et l'originalité dans le développement de l'infini de styles rhétorique qui lui donnent vitalité et la nouveauté permanente et la recherche de ces plaisirs des discours insolite évoquent récepteur intelligent et intuition et l'expérience…

المدخل

إن نظرية بلاغة الغموض، ومنهج آليات التأويل للخطاب من أقدم النظريات والمناهج ظهورا في الآداب والفلسفات القديمة الهندية والصينية وديانتها، وفي الأدب والفلسفة اليونانية والديانات الشرقية القديمة، وفي الآداب والديانات المسيحية واليهودية وبعض فرقها كالقبانية والغنوصية وغيرها من فلسفات وتيارات فكرية ودينية غربية سادت في القرون الوسطى، وبخاصة فلسفة أفلوطين وما بعدها، وفي الأدب والفكر العربي عند بعض الفرق وبخاصة المعتزلة وبعض فرق الشيعة، وعند إخوان الصفا والمتصوفة المتفلسفين ،كما توسع مجالها في الفكر العربي، فأصبحت خطابا شاملا، كما أعيد تأصيل

نظريتها ونهجها في الآداب والفلسفة الأوروبية الحديثة وبخاصة عند الألمان أمثال هايدجر وهرسل وجادامير وهامبراس، ثم عند بول ريكور، وأنبرتو إيكو ،وتفكيكية جاك دريدا، والتنظير المختلف للسانيين والنحويين العقلانيين والتداوليين، والسيميائيين، والدلاليين، والبلاغيين الجدد وغيرهم.

وحاول كل من حسن حنفي ومحمد أركون ونصر أبو زيد والجابري وغيرهم إعادة تأصيلها في الفكر العربي الحديث، والسؤال الذي يطرح نفسه باستمرار، هل للتأويل حدا ينتهي إليه أم أنه مفتوح ما دام البحث عن المعنى النهائي لأي خطاب يبقى بعيد المنال، ومن ثم تصبح التأويلات من خلال القراءات لا نهاية لها، واستيعاب مقاصد أشكال الخطابات وتفسيرها، والتحكم في علوم اللغة ومناهجها للكشف عن الأسرار لما وراء ظواهر تركيبها للكشف عن معانيها البعيدة التي لا تعرف حدا تقف عنده، وكلما حاولنا حل إشكال تولدت عنه إشكاليات، وهذا طبيعي مادام الإنسان لا يستطيع أن يفهم بصفة كاملة وموحدة ما ينتجه، ويتلقاه من خطابات، وبخاصة إن كانت تقدم فائضا من الدلالات الملتوية المفتوحة البعيدة عن الحدود المرسومة والمتعارف عليها في المرجعيات الواقعية والعرفية والمنطقية والعقلية والشرعية.

وقد تساءل الإنسان منذ القدم عن الأفق الذي تنتهي إليه البلاغة في كمال دلالتها وجمال أساليبها، وهذا إشكال ظل يؤرق الفلاسفة والبلاغيون، وما زال يؤرق أيضا السيميائيون والتداوليون والدلاليون في حيرتهم أمام تحولات تشكل المعاني غير الحرفية للخطابات، والحد الذي تنتهي عنده عملية تأويلها من خلال مظاهرها الشكلية الشفافة، وأنساقها المتنوعة ومراميها البعيدة.

ونحاول التعرف على الوسائل التعبيرية لبلاغة الغموض وآليات منهجها في الفهم والتأويل من خلال مستويات الخطاب من منظور قابليته للتأويل في

فضاء الخطاب الواحد أو المتعدد، وإمكانية انفتاح تأويلاتها من مستوى أول وثان وثالث ..الخ.

وتتعقد، وتتعدد التأويلات عند الانتقال من مستوى أدنى للخطاب في سيميائيته وتداوليته (المقاربة الواقعية السطحية لحقائق الخطابات من منظور المذاهب الفكرية والأدبية الواقعية)إلى مستويات أعلى في سيميائيته وتداوليته (المقاربة الماورائية للخطابات من منظور المذاهب الفكرية والأدبية المثالية) كما يرى الدرس البلاغي في العصور القديمة والدرس البلاغي الجديد ببعديه السيميائي والتداولي، والتقاء هذه النظرة مع منهج الفكر التأويلي التحليلي البلاغي في التراث العربي الذي كان يتراوح بين امتلاك الخطاب لآليات التركيب البلاغي الغامض، والتفكيك الدلالي التأويلي، وبين العجز عن هذا التركيب والتفكيك، وقبول هذا النوع من الخطاب المبني على قصدية إشاعة الالتباس لإخفاء المعنى، واختبار ذكاء المتلقي وفراسته، وغموض التأويل يمثل ظاهرة أخرى من المعرفة المغيبة، والقصد منها الاحتفاظ ببعض أسرارها إلى الأبد، أو الكشف عن أسرارها كاملة من متلقي مخصوص، وتنتهي مغامرة التأويل في مرحلة معية لتزيد من كبرياء الطرفين المرسل الساحر، والمتلقي العبقري، وقد تكون علاقة خاصة تتم بين مرسل لخطاب رباني، ومتلقي مختار لا يكون إلا من الأنبياء والرسل.

ونهج الفكر البلاغي العربي التأويلي التحليلي اتسع، وتعمق في مقاربة كل هذه الأشكال من الخطابات الغامضة، فكان بحق ليس في عمومه كما درجت بعض الدراسات البلاغية على توصيفه بالمنهج المعياري الجامد العاجز عن مواجهة كل الخطابات لافتقاره لآليات التأويل، بل كان أيضا يجمع بين المنهج التأويلي والوظيفي والوصفي، وتحركه آليات بلاغة الغموض والفكر

المعرفي المشفر، وإن كان هذا الأخير محصورا في نطاق خطابي محدود، ويتميز عن خطاب اللاتواصل الناتج عن عجز لاستعمال قواعد التركيب النحوي الصحيح، والمرجعيات الدلالية المقبولة وجماليات التفصيح البلاغي الغامض،أوما يمكن أن يطلق عليه الخطاب العاجز في تواصله نتيجة خرقه لكل السنن، وتجاوزه لكل الوظائف التواصلية اللسانية في جميع مستوياتها الأسلوبية تركيبا ودلالة وتداولا.

كما يجب الإشارة بأن ظهور خطاب المنحى البلاغي التأويلي في التراث العربي كان يتراوح بين امتلاك هذا الخطاب لآليات التفكيك الدلالي التأويلي، وبين العجز عن هذا التفكيك، وقبول هذا النوع من الخطاب المبني على بلاغة الغموض، والتي تمثل صنفا آخر من المعرفة تختص باحتفاظها ببعض أسرارها إلى الأبد، أو تكشف عن كامل أسرارها.

والبلاغة العربية اتسعت لكل هذه الأنواع، فكانت بحق بلاغة التواصل الواضح والتواصل الغامض، وإن كانت هذه الأخيرة محصورة في نطاق خطابي بلاغي محدود ومقبول معرفيا وبلاغيا،ومن هذه الأصناف الخطابية التي تناولها الفكر المعرفي و البلاغي التأويلي في التراث العربي خطاب الترميز.

غير أن الجري وراء التجزئة، وتجزئة المجزأ في قضايا تفكيك الخطابات وتحليلها وتأويلها وتصنيفها في عائلات وأنواعا، والكشف عن طبيعتها اللغوية والسيميائية والبلاغية والدلالية والتداولية كان حاجزا أمام تقدم الدرس البلاغي ومناهج تأويله وتفكيكه لينعكس كل ذلك على عملية الإبداع وإنتاج خطابات جديدة باستمرار،ولنضرب لذلك مثلا بأحد البلاغيين المتأخرين الذي اعتمد على تقسيم من سبقه من البلاغيين لأطراف الدلالة، والتي اكتشف ما يمكن أن نسميه بالمربع الدلالي المتضمن لما يعرف بالمثلث الدلالي لريتشاردز وأوجدن بإضافة

دلالة الكتابة إليها كطرف رابع حيث حدد بأن وجود الأشياء في العبارة هو الدال، ووجودها في الأذهان هو المدلول، ووجودها في الأعيان هو المرجع ،والمثير للإعجاب تغليبه للمجازي على الحقيقي في هذا التخطيط الدلالي إذ أن الأطراف الثلاثة عدها مجازية، ولم يبق للحقيقة إلا الوجود العيني بقوله: " اعلم أن للأشياء وجودا في أربع مراتب في الكتابة والعبارة والأذهان والأعيان وكل سابق منها وسيلة إلى اللاحق لأن الخط دال على الألفاظ، وهذه على ما في الأذهان، وهذا على ما في الأعيان، والوجود العيني هو الوجود الحقيقي الأصيل، وفي الوجود الذهني خلاف في أنه حقيقي أو مجازي، وأما الأولان فمجازيان قطعا.. "[2]

إن هذا التصنيف النوعي للدلالات وطبيعتها في تجزئة المجزأ ما زال البلاغيون والدلاليون يطمحون إليه بقدر ما يستطيعون، لأنهم لا يرون في تجاوزهم للذين سبقوهم إلا بعملية إيغالهم في التجزئة وإضافة أنواع جديدة.

وقد جمع ابن رشيق كل هذه الأنواع من الأساليب البلاغية التي لا يدرك معناها إلا بقدر من التأويل، ووسع من مفهوم الإشارة بحسب منظوره، فأصبحت تشمل كل أنماط التعبير غير المباشرة ،وأدرج ضمنها تشبيه للإشارة والتفخيم والإيماء والتعريض والتلويح والكناية والتمثيل والرمز واللمحة واللغز واللحن، ويسمى المحاجاة لدلالة الحجا عليه والحذف والتورية والتتبيع. [3]

ومقاربات التراث البلاغي العربي ضمن منهجه التأويلي من هذه الأنواع من الخطابات يتوزع على مجالات معرفية مختلفة منها ما يرجع إلى الفكر البلاغي والنقدي، ومنها ما يرجع للفكر اللساني، ومنها ما برجع إلى التفسير

[2]- صديق حسن القنوجي، أبجد العلوم ج: 1، دار الكتب العلمية ن بيروت ن 19781 ص: 63.
[3]-انظر ابن رشيق العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،ج1،دار الجيل ،بيروت ،ط1972،1،ص 302

وعلوم القرآن والحديث ،ومنها ما يرجع إلى الفكر الكلامي و الفلسفي والصوفي، وهذا لا يخص جامع الخطابات العربية بل هو عام في خطابات الفكر الإنساني.

وسنحاول إعادة فهم منهج هذا الفكر التحليلي البلاغي الغامض التأويلي العربي الذي يعد حقيقة من الجذور التأصيلية التاريخية لكل المناهج والنظريات الحديثة في تحليلها للوحدات الأسلوبية ومستويات تواصلها الجمالي بمختلف اتجاهاتها ومشاربها، وبخاصة عند التأويليين والسيميائيين والتداوليين،ودورهم في تقديم مناهج وأدوات إجرائية في إعادة تحليلهم لحقيقة مكونات التواصل الناجح والكامل ووظائفه المعرفية والفنية،كما قدموا طرقا وتصورات جديدة في تحليل الخطابات بجميع أشكالها وأنماطها وأنواعها لأغراض ومقتضيات شتى.

ولا شك بأن معركة المفاهيم للكشف عن الأنساق الخاصة بوسائل بناء هذا النوع الخطابي المصاحب بنوع خطابي بلاغي فكري تفسيري تأويلي يجعل من هذا الثنائي أنساقا خطابية مركبة تنطلق مما هو مستغلق دلاليا، وتنهي عند مفتاح هذا الاستغلاق؛ وبمعنى آخر فلا يمكن إتمام نجاح التواصل إلا بالجمع بين خطابين متوازيين متلازمين في وجودهما النص (texte)، وما فوق النص (métatexte)،وهذه الازدواجية في حضور آليات الاستغلاق الدلالي للخطاب وآليات تفكيكه والتي تمثل مظهرا من مظاهر الفراسة العربية، وتحدياتها لإمكانيات اللغة غير المحدودة في حجب مضامينها وامتناعها عن مكاشفتها لمحتواها إلا لنوع خاص من المتلقين، وهذا ما سنركز عليه في هذه الدراسة من خلال استقرائنا، وتحليلنا لهذا النوع من الخطابات الفكرية والنقدية والبلاغية العربية القديمة المعتمدة في آليات تواصلها على نسق خطاب الرمز الذي يتوخى في آليات تسنينه على بلاغة الغموض.

إن البحث في الحفريات المعرفية في التراث العربي للكشف عن كل معاني ودلالات ألفاظ الرمز والترميز والمرموز والمرموز له والرمزية، وأبعاد مفهومه عند تحوله إلى ضروب من المصطلحات النسقية الدلالية غير اللسانية واللسانية الأسلوبية ذات المرجعيات المعرفية المختلفة، ومن ثم يمكن أن تشكل محورا استقطابيا لمجالات علمية وفلسفية وفكرية وأدبية وثقافية لكونها من المصطلحات التي يمكن أن تكشف عن الأصول الفعلية لكثير من العلوم الحديثة المهتمة بدراسة مختلف النظم والطرق والأنساق الخاصة بالمعرفة، وبالتواصل البشري بمختلف أشكاله كعلوم البلاغة والتداولية والدلالية والسيميائيات بصفة عامة من رؤية لغوية و فكرية ودينية وأدبية.

1 . مفهوم الرمز في المعاجم اللغوية العامة

جاء في لسان العرب أن " رمز رمز الرمز تصويت خفي باللسان كالهمس، ويكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت ؛إنما هو إشارة بالشفتين، وقيل الرمز: إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفتين والفم، والرمز في اللغة كل ما أشرت إليه مما يبان بلفظ بأي شيء أشرت إليه بيد أو بعين، رمز يرمز ويرمز رمزا، وفي التنزيل العزيز في قصة زكريا عليه السلام ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا...."[4]، واختصره مختار الصحاح بهذه الكيفية "الرمز الإشارة والإيماء بالشفتين والحاجب.. "[5].

2 – مفهوم الرمز في المعاجم العربية المتخصصة:

ننتقل إلى المعاجم المتخصصة، ومنها صاحب التعاريف الذي حاول تحديد مفهوم الرمز في كلامه عنه مباشرة أو في كلامه عن الإيحاء، يقول في

---

[4]- ابن منظور، لسان العرب ج: 5 دار صادر ن بيروت، ط1 (د.ت) ص: 356: 357.
[5]- محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح تحقيق محمود خاطر، دار المعارف بمصر 1976، ص: 256.

السياق الأول :"الرمز تلطف في الإفهام بإشارة تحرك طرف كاليد واللحظ والشفتين والغمز أشد منه ذكره الحرالي، وقال الراغب إشارة بالشفة والصوت الخفي والغمز بالحاجب، وعبر عن كل كلام كإشارة بالرمز كما عبر عن السعاية بالغمز." [6]

وفي السياق السابق يخصص تحقيق التواصل النسقي الرمزي بوسائل غير لسانية لكنه يعود في نهاية كلامه ليجعل منه نسقا سيميائيا تصويريا أسلوبيا لسانيا،يقول في السياق الثاني: "الوحي إلقاء المعنى في النفس في خفاء، ولا يجوز أن تطلق الصفة بالوحي إلا لنبي ذكره الحرالي، وقال الراغب:أصله الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة، قيل: أمر وحي، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ويكون بصوت "[7]، ويكرر التحديد نفسه في موضع آخر بقوله :"إيقاع المعنى في النفس بخفاء وسرعة ولتضمن السرعة، قيل: أمر وحي، وذلك بكون الكلام على طريق الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة، وعلى هذه الأوجه يوحي بعضهم إلى بعض، فأوحى إليهم أن سبحوا."[8]، ويفرق بين الخطابات المبهمة، و بين التواصل بالنسق الخفي الرمزي لغرض من الأغراض الفنية معرفية كما هي عند المتصوفة؛ ومنها التخليص والتلقيح والتلميح والإشارة، وكأنه يسير في خطى ابن رشيق يقول: " التلبيس التخليط والإشكال وعند الصوفية ستر الحقيقة وإظهارها بخلاف ما هي عليه"[9]، و" التلميح الإشارة في فحوى الكلام إلى قصة أو شعر

[6]- محمد المناوي، التعاريف، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر،بيروت،ط1 1410هـ ص: 374

[7]- محمد المناوي، التعاريف، ص: 721

[8]- محمد المناوي، التعاريف، ص: 105

[9]- محمد المناوي، التعاريف، ص: 203

من غير تصريح به. "[10] وهو بهذا الاستغراق في تصنيف الأنساق الخطابة ذات الدلالة غير المباشرة التي لا يلتمس معناها إلا بشيء من الجهد والذكاء والتمرس والخبرة.

وخفة التواصل وسرعته ذكره أيضا الجرجاني بقوله: "الإيحاء إلقاء المعنى في النفس بخفاء وسرعة.."[11]

وجاء أيضا في الحدود الأنيقة: " الظاهر لغة الواضح واصطلاحا ما دل دلالة ظنية الخفي ضده المؤول مشتق من التأويل، وهو حمل الظاهر على المحتمل المرجوح .. " [12]

ولا شك بأن الرمز واحد من الأنساق التعبيرية غير المباشرة التي لا يتم الكشف عن معانيه المتعددة كلها إلا بالتأويل اللانهائي كما هو عند التفكيكيين، ويطلقون عليه المعاني المؤجلة.

وكل هذه المعاجم المتخصصة نصت على نوع من التواصل بوسائل تعبيرية غامضة، ويحدد فحواها بمنهج التأويل من خلال أنساق بلاغة الغموض، وهكذا ينظرون إلى الخطاب بأنه يتم بنسقين ظاهر وخفي، ولن يتحقق الخفي إلا بالأنساق التعبيرية غير المباشرة، ومن أهمها الرمز.

3 . مفهوم الرمز عند البلاغيين والنقاد:

الرمز عند البلاغيين نوع خاص من الكناية في حالة قلة الوسائط فيها كما ينص ذلك القزويني، وبعضهم يجعلها مرادفة للتعريض. وقال السكاكي الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة.. فإن كان بينها وبين

[10]- محمد المناوي، التعاريف، ص: 203.

[11]- علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، تحقيق غبراهيم الأبياري، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1405 هـ ص: 59.

[12]- زكريا بن محمد الأنصاري، الحدود الأنيقة، تحقيق مازن المبارك، دار الفكرالمعاصر، بيروت، ط1411،1هـ، ص: 80.

المكنى عنه مسافة متباعدة لكثرة الوسائط ..فالمناسب أن تسمى تلويحا لأن التلويح هو أن يشير إلى غيرك عن بعد، وإلا فإن كان فيها نوع خفاء فالمناسب أن تسمى رمزا .."[13]

إن المعنى الذي يتضمن قدرا من الترميز منطلقه . كما قال سانت أغسطين. من مبدأ وجود العلامات بمعناها الحقيقي ،ثم نقلت إلى معنى آخر؛ ولهذا فإن البلاغيين متعودين عن الكلام عن المعنى الحقيقي والمعنى المجازي؛ وكذلك فإن الجماليين الرومانسيين فرقوا بين الحكاية المجازية والرمز، [14] فالرمزية على هذا الأساس تبدأ من الانحراف الدلالي الجمالي للغة غير أنها تتفاوت في درجة ترميزها، وهذا لم يغب عن النقاد واللغويين والبلاغيين العرب ونضرب لذلك مثلا من النقد اللغوي لابن جني في محاولته لفهم بعض الأساليب التي تتجاوز ما هو مفهوم من المجاز في الدرس البلاغي المعروف، وأداره حول بيت المتنبي:

يشكو الملام على اللوام حره ويصد حين يلمن عن برحائه

يقول ابن جني :"يشكو الملام على اللوام ما يلقاه من حر هذا القلب، فإذا أكره على مباشرتها ليلا يحرقه وهذا كله مجاز لا حقيقة تحته ،وكذلك أكثر كلام العرب إنما هو جار مجرى الأمثال والرموز وقد تقصيت هذا هناك... " [15]، فهذا اللغوي الناقد ينطلق من مفهوم المجاز ليتجاوزه إلى تقريبه من مفهوم المثل الرمز.

---

[13]- القزويني،الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق، عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، ط5، 1400هـ-1980م. ص 466.

[14] -T. Todorov ; théorie du symbole , Editions du Seuil , paris ,1977, p 261.

[15]- ابن جني، الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي ،تحقيق محسن عياض دار الحرية للطباعة بغداد 1973 ص 27.

وابن الأثير من البلاغيين القدماء الذين أدخلوا مصطلح الرمز حين عجزوا عن تفسير الظاهرة الجمالية المتميزة في هذين البيتين بالأدوات البلاغية المعروفة :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

إن ابن الأثير يرى في البيت الثاني الذي جاءت فيه عبارة .. أخذنا بأطراف الأحاديث.

يقول : إن في ذلك وحيا خفيا ورمزا حلوا ... "[16]

وقد أدرج ابن رشيق هذه الأنواع كلها في مفهومه الموسع للإشارة بقوله:"الإشارة من غرائب الشعر وملحه وبلاغة عجيبة، تدل على بعد المرمى وفرط المقدرة، وليس يأتي بها الا الشاعر المبرز، والحاذق الماهر، وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة، واختصار وتلويح يعرف مجملا ومعناه بعيد عن ظاهر لفظه...ومن أنواعها الرمز كقول احد القدماء يصف امرأة قتل زوجها وسبيت:عقلت لها من زوجها عدد الحصى مع الصبح أو مع جنح الليل كل أصيل يريد أني لم أعطها عقلا ولا قودا بزوجها إلا الهم الذي يدعوها إلى عد الحصى...

وقد أدرج ابن رشيق هذه الأنواع كلها في مفهومه الموسع للإشارة بقوله :"الإشارة من غرائب الشعر وملحه وبلاغة عجيبة ،تدل على بعد المرمى وفرط المقدرة ،وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرز ،والحاذق الماهر ،وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة ،واختصار وتلويح يعرف مجملا ومعناه بعيد عن ظاهر لفظه ...ومن أنواعها الرمز كقول أحد القدماء يصف امرأة قتل زوجها وسبيت : عقلت لها من زوجها عدد الحصى مع الصبح أو مع جنح الليل كل أصيل

[16]- ابن الأثير، المثل السائر ج: 2، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت،1995ص: 342

يريد أني لم أعطها عقلا ولا قودا بزوجها إلا الهم الذي يدعوها إلى عد الحصى ..

وأصل الرمز الكلام الخفي الذي لا يكاد يفهم ،ثم استعمل حتى صار الإشارة ،وقال الفراء الرمز بالشفتين خاصة .. "[17]

وجاء في كتاب البرهان في وجوه البيان لأبي إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب والذي نسب إلى قدامة خطأ بعنوان نقد النثر، وقسمه إلى وجوه بيانية أربعة: "بيان الاعتبار"، و"بيان الاعتقاد"، و" بيان العبارة "، و"بيان الكتاب" وفي القسم الثالث درس الأنساق البلاغية الأسلوبية الدلالية ومنها أنماط الصور كالتشبيه واللحن والتعريض والرمز والوحي والاستعارة والأمثال واللغز والحذف والصرف والالتفات والمبالغة.

وقال عن الرمز: "وأما الرمز؛ فهو ما أخفي من الكلام، وأصله الصوت الخفي الذي لا يكاد يفهم ، وهو الذي عناه غز وجل بقوله (قال رب اجعلي آية، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا)[18]، وإنما يستعمل المتكلم الرمز فيما يريد طيه عن كافة الناس، والإفضاء به إلى بعضهم فيجعل الكلمة، أو الحرف اسما من أسماء الطير أو الوحش، أو سائر الأجناس، أو حرفا من حروف المعجم، ويطلع على ذلك الموضع من يريد إفهامه رمزه، فيكون ذلك قولا مفهوما بينهما مرموزا من غيرهما، وقد أتى في كتب المتقدمين والحكماء والمتفلسفين من الرموز شيء كثير، وكان أشدهم استعمالا للرمز أفلاطون، وفي القرآن من الرموز أشياء عظيمة القدر، جليلة الخطر، قد تضمنت علم ما يكون في هذا الدين من الملوك والممالك، والفتن والجماعات، ورمزت لكل صنف من ذلك وانقضائه ،ورمزت بحروف المعجم وغيرها من الأقسام كالتين والزيتون

[17]- ابن رشيق العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، دار الجيل، بيروت، ط1،1972، ص 302.
[18]- سورة آل عمران :41.

والفجر والعاديات والعصر والشمس، واطلع على علمها الأئمة المستودعون علم القرآن، ولذلك قال أمير المؤمنين – عليه السلام –ما من مائة تخرج إلى يوم القيامة، لا وأنا أعلم قائدها وباعثها وأين مستقرها من جنة أو نار؛ وروي عن ابن عباس –رضي الله عنه – أنه سئل عن ألم وحم وطسم ، وغير ذلك مما في القرآن من هذه الحروف؛ فقال: ما أنزل الله كتابا إلا وفيه سر، وهذه أسرار القرآن، وهي حروف الجمل، ومنها كان علي يعلم حساب الفتن، فهذه الرموز هي أسرار آل محمد، ومن استنبطها من ذوي الأمر وقف عليها، فعلم جليل ما أودعهم الله إياه من الحكمة. وقد ذكرنا مما تأدى إلينا من تفسير ذلك في كتابنا الذي لقبناه "بأسرار القرآن " ما أغنى عن إعادته ها هنا، فإن رغبت فيه فاطلبه تقف عليه إن شاء الله "[19].

وابن وهب يوسع مفهوم الرمز ليشمل الألفاظ والحروف كما يشمل الرمز العام والخاص وخاصة الخاصة، وهذا الأخير ربطه بالفكر العقائدي الشيعي الذي يجعل تأويل أسرار بعض الرموز خاصة بآل محمد صلى الله عليه وسلم.

4 . الرمز والإعجاز :

جعل القنوجي وهو من المتأخرين تكثيف المعاني وتعددها وجها رابعا من وجوه الإعجاز، وهي يتم بمجموعة من الأنساق الخطابية غير المباشرة، يقول : "والوجه الرابع من إعجازه كثرة معانيه التي لا يجمعها كلام البشر وذلك من وجهين: أحدهما ما يجمعه قليل الكلام من كثير المعاني كقوله تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين)، فجمع في آية واحدة بين أمرين

[19]-إسحاق بن إبراهيم بن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق حنفي محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، 1969، ص 112-113.

ونهيين وخبرين وبشارتين، والثاني أن ألفاظه تحتمل معاني متغايرة تحار فيها العقول، وتذهل فيها الخواطر وتكل فيها القرائح ثم لا تبلغ أقصاه، ولا تدرك منتهاه حتى اختلفت فيه الوجوه، وتقابلت فيه النظائر ..فعنه جوابان أحدهما أن الإلغاز وإن ذم فالرمز ليس بمذموم، وليس فيه لغز وإن كان فيه رمز..والرمز ما خفي معناه .. " [20]

5 . خطاب الرمز الخاص، أو المشفر:

نستعرض أنماطا من الخطابات تغلق دائرة دلالتها الخفية البعيدة التي لا تلتمس من ظاهر معاني ألفاظها،ولتحقيق ذلك تستخدم الرمز المشفر الخاص المراوغ بمحتوى ظاهري لعموم المتلقين، وليس هو المقصود من الخطاب، وتخفي محتوى قضوي هو المقصود موجه لنوع خاص من المتلقين، والبلاغيون يعدونها نوعا من الكنايات الغريبة، ويعني ذلك أن الرمز المشفر يساوي عندهم كناية زائد غرابة ،والكناية تساوي رمزا ناقص غرابة، وهذا النوع من الأسلوب يلجأ إليه لأسباب كثيرة وبخاصة في الحروب والنزاعات بين القبائل ومنها ما يقصد منها اختبار عبقرية الشخص وفراسته وذكائه ..

ومنهج تشفير الرمز يعتمد على نوع خاص من الآليات من شروطه انحصار مؤولها فيمن يملك مسبقا مفاتيح التشفير بالإضافة إلى اتصافه بالذكاء والفصاحة ومعرفة الإحالات ومواطن التناص والاشتراك والتصحيف، وهذا الرمز ناتج عن إخفاء قصدي للمعنى المراد، أو ما يسمى تبييت المعنى الناتج عن لعبة لفظية يتطلبها الموقف للمخاطبة من وراء قناع الدلالات الرامزة المشفرة التي لا يفهمها إلا من كان قد تمرس في فكها.

[20]- صديق حسن القنوجي، أبجد العلوم ج: 1 ص: 63.

وهذا الرمز نوع من أنواع الكناية عند بعض البلاغيين ،ومن سماته الذكاء والفصاحة والإحالة والتناص والاشتراك والتصحيف، وهذا الرمز ناتج عن إخفاء قصدي لمعنى ملغز لا يفهمها إلا من كان له معرفة خاصة بصاحبها، فهي لغة رامزة مشفرة تشفيرا خاصا بين المرسل والمتلقي، لكن قد يكون هذا التشفير المرمز الملغز عند غيرهم مجرد هذيان لأحد المجانين، ونأخذ خطابا قديما مبنيا على نمط التسنين الملغز والذي سماه الكنايات بأسلوب رمزي وإستراتيجية منهج آليات التفكيك والتأويل فيها يتم من خلال خطاب مركب تركيبا رباعيا،فبدايته (متا خطاب) مفهومي بلاغي ووسطه تركيب لمسار سردي سميائي من حبك راو وناسخ لها هو الإبشيهي الذي حدد طبيعة التشفير في نوع خاص من الكنايات الغريبة التي تتحول إلى رمز، وثالثها تداولية بإنتاج (متاخطاب) يخص عموم المتلقين وفشلهم في امتلاك آليات تفكيك فحوى الخطاب، والنهاية تكون تداولية ووظيفتها (متاخطاب) آخر للمتلقي البطل الذي ينجح في حل تشفير الرمز.

يقول صاحب (المستطرف في كل فن مستظرف) : "من غريب الكنايات الواردة على سبيل الرمز وهو من الذكاء والفصاحة ما حكي أن رجلا كان أسيرا في بني بكر بن وائل، وعزموا على غزو قومه، فسألهم في رسول يرسله إلى قومه، فقالوا لا ترسله إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم، وتحذرهم فجاءوا بعبد أسود فقال له: أتعقل ما أقوله لك، قال: نعم إني لعاقل، فأشار بيده إلى الليل، فقال ما هذا قال: الليل قال ما أراك إلا عاقلا ،ثم ملأ كفيه من الرمل، وقال كم هذا، قال: لا أدري وإنه لكثير فقال: أيما أكثر النجوم أم النيران. قال: كل كثير، فقال: أبلغ قومي التحية، وقل لهم يكرموا فلانا يعني أسيرا كان في أيديهم من بكر بن وائل، فإن قومه لي مكرمون، وقل لهم: إن العرفج قد دنا، وشكت النساء

وأمرهم أن يعروا ناقتي الحمراء، فقد أطالوا ركوبها، وان يركبوا جملي الأصهب بأمارة ما أكلت معكم حيسا، واسألوا عن خبري أخي الحرث، فلما أدى العبد الرسالة إليهم، قالوا: لقد جن الأعور والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملا أصهب، ثم دعوا بأخيه الحرث، فقصوا عليه القصة، فقال: قد أنذركم أما قوله: قد دنا العرفج يريد أن الرجال قد استلأموا، ولبسوا السلاح، وأما قوله: شكت النساء أي أخذت الشكاء للسفر، وأما قوله: أعروا ناقتي الحمراء أي ارتحلوا عن الدهناء، واركبوا الجمل الأصهب أي الجبل، وأما قوله :أكلت معكم حيسا أي أن أخلاطا من الناس قد عزموا على غزوكم لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقط ،فامتثلوا أمره، وعرفوا لحن الكلام، وعملوا به، فنجوا ."

هذا الخطاب الرمزي المتعدد مركزه الرسالة المشفرة المرمزة الملغزة المحفوفة بأنماط من الخطابات المتداخلة أو ما يعرف بالتداخل بين النصوص ،والتي تشكل الخطاب الشامل، أو المركب في مشهد وحوار سردي ممسرح بحيث يبدأ بـ(متا خطاب)تفكيكي، وينتهي بـ(متا خطابين) تفكيكين :فاشل لا يملك آليات تفكيك دلالته الرمزية (متاخطاب القبيلة)، يليه آليات التفكيك الدلالي الرامز الناجح (متا خطاب الأخ) الذي يملك كامل سياقات الخطاب التداولية المساعدة على فك رمزيته.

والنص الكامل غني بمكوناته السيمائية ،ومظاهره التداولية الأمر الذي يجعل تفسيره مستعصيا في ضوء مقاربة واحدة، وهذا يدل على أن الرجوع إلى الخطابات النوعية الشاملة العربية القديمة يعيد النظر في كثير من حقائق هذه الخطابات وتحليلها في ضوء المناهج الحديثة ونظريتها بمعنى أن هذه النصوص المركبة تجاوزت عصرها بطبيعتها الفنية.

كما يلاحظ بأن التشفير الرمزي للحكاية الأولى عده قومه هذيان مجنون ،لكن أخاه أوله تأويلا صحيحا يدل على نجاح التحكم في سياقه القضوي التداولي بحيث اختار أشياء نسبها لنفسه، ولا وجود لها أصلا، وأحداثا عاشها معهم ،ولم تحدث أصلا، وهذا الاختيار كان المحرك الأساسي للنجاح في تفكيك الشفرة المرمزة لكل مكونات خطاب الرسالة.

وفي الحقيقة فإن هذا الخطاب الرسالة على الرغم من قصره، فقد بني بناء غنيا في تركيبه بمكونات سيميائية سردية ودلالية وتداولية، وأنماط تركيبية ،فهو يضم نص الرسالة التي يغلب عليها السرد و(متا نصوص)، ومن الوجهة السيميائية، فقد تركب من أساليب حرفية وغير حرفية، وحوارات، وأبطالا ومشاهد، ومن الوجهة التداولية، فهو متضمن لأفعال الإخبار والإنجاز لمتلقين مختلفين، ولمضامين قضوية، كما يتضمن ازدواجية في نظام تواصله بحسب هذه الترسيمة :

المرسل الأول (الأسير) المتلقي الأول(العبد الأسود + رجال من القبيلة الأولى)

المرسل الثاني (العبد الأسود) المتلقي(قبيلة الأسير والفشل في فك الرموز)

الرسل الثالث (قبيلة الأسير) المتلقي الثالث(أخو الأسير والنجاح في فك الرموز)

6. رمز الخوف المشفر:

إن الرمز المشفر قد يكون نتيجة الخوف، ومن ثم يركب الخطاب بطريقة مشفرة لإخفاء ما يريد المرسل إخفاءه، وهذا ما نلاحظه في هذه الحكايات التي رواها الإبشيهي في النصوص الآتية :

"أسرت طيء غلاما من العرب فقدم أبوه ليفديه، فاشتطوا عليه، فقال أبوه والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبل طيء ما عندي غير ما بذلته،

ثم انصرف، وقال :لقد أعطيته كلاما إن كان فيه خير فهمه، فكأنه قال له ألزم الفرقدين يعني في هروبك على جبل طيء، ففهم الابن ما أراده أبوه، وفعل ذلك فنجى.. "

7 . رمز المسكوكات المشفرة :

ما نسميه بالمسكوكات المشفرة العرفية؛ هي عبارات لها دلالة تأويلية رمزية ،ومنها هذه النماذج :

"من ذلك قولهم:..ما رأيت فلانا راكعا ولا ساجدا ولا مصليا؛ فالراكع العاثر الذي كبا لوجهه، والساجد المدمن النظر، والمصلي الذي يجيء بعد السابق..وما أخذت لفلان بقرة ولا ثورا؛ فالبقرة العيال الكثيرة يقال :جاء فلان يسوق بقره أي عياله، والثور القطعة الكبيرة من الأقط.. "

8 . رمز الالتباس لحسن التخلص:

الالتباس الذي يتضمن عدة تأويلات رمزية قد ترضي كل المخاطبين بحسب مقصدية كل منهم من تأويله للخطاب لصالحه، وهذا يعد من حسن التخلص ،والمقدرة على صوغ خطاب حمال أوجه، ومن نماذجه قول معاوية لعقيل بن أبي طالب: إن عليا قد قطعك ،وأنا وصلتك، ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر قال: أفعل. فصعد المنبر، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه: أيها الناس إن معاوية بن أبي سفيان قد أمرني أن ألعن علي بن أبي طالب، فالعنوه فعليه لعنة الله ثم نزل، فقال له معاوية: إنك لم تبين من لعنت منهما بينه. فقال: والله لا زدت حرفا، ولا نقصت حرفا، والكلام إلى نية المتكلم.."[21].

[21]- شهاب الدين الإبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ج: 1، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986، ص: 102.

9 . الرمز المشفر للهجاء في صورة مدح:

هذا نوع من الرمز المشفر الذي لا يقدر على تركيبه إلا الأذكياء المتحكمون في ناصية بلاغة الغموض ووسائلها وسياقاتها التداولية التناصية ،وكذلك المستقبلون الذين يمتلكون سرعة البديهة والخبرة في تأويل دلالات الخطابات الملتوية في تركيبها، و البعيدة في معانيها، ومنها هذه النماذج من الخطابات التي لا تفهم معانيها إلا بإدراك تناصها مع آيات من القرآن الكريم وأشعار ،ومن ثم فإن هذا النوع من الترميز يتطلب ثقافة واسعة لتركيب أو تفكيك الدلالات التأويلية الرمزية، ونذكر البعض منها للتمثيل:

" دخلت امرأة على هرون الرشيد، وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت :يا أمير المؤمنين أقر الله عينك وفرحك بما آتاك، وأتم سعدك لقد حكمت، فقسطت...ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة. فقالوا: ما نراها قالت إلا خيرا. قال :ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها أقر الله عينك أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها وفرحك بما آتاك فأخذته من قوله تعالى :"حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة"، وأما قولها وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر:

إذا تم أمر بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل تم **وأما قولها لقد حكمت، فقسطت، فأخذته من قوله تعالى:" وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا" ،فتعجبوا من ذلك "**[22]

الرمز المشفر الخاص لا يستطيع فهم دلالته التأويلية إلا من كان مستوعبا لعملية التشفير بصفة شبه اشتراك للسياقات التداولية بين المشفر للخطاب ومؤوله ،ويصعب على غيرهم حل عملية التشفير والقيام بالتأويل الصحيح

[22]- شهاب الدين الإبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف ج: 1 ص: 102.

للخطاب كما لا حظنا ذلك في النماذج السابقة، وكانت كلها ينتهي تأويلها باستيعاب المقاصد البعيدة للخطاب، وهذه إشكالية الترميز المشفر المرتبط بمعرفة مقاصد صاحبه، ويختلف عن الرمز الآخر الذي لا تتحدد دلالته التأويلية من خلال مقاصد صاحبه التداولية المعروفة مسبقا، وهو الأبعد فنيا، وعنه يقول جادامير :" لا تستنفده أبدا مقاصد المؤلف، وكلما عبر العمل من سياق ثقافي أو تاريخي إلى آخر، يمكن أن تغربل منه معان جديدة ربما لم يتوقعها مؤلف العمل أو جمهور معاصريه.."[23]

10 . الرمز الصوفي عامة:

لقد عمق المتصوفة النظرية في إبداعهم الشعري وتفكيرهم الغيبي، وهذا طبيعي لأنهم يسعون بطبيعة الحال إلى خلق المتلقي القادر على تأويل الرمز، وهذه النزعة موجودة دائما لدى المتصوف لأن التجربة الصوفية في الأساس عديمة الشكل، غير محددة وغير متماسكة. حتى الشكل المقدس تحت أنظار الصوفي يفقد شكله، ويتخذ شكلا مختلفا.

يقول ابن عربي في ترجمة الأدب "إشارة الرمز ليس من شأن الأمر فإنه يقابل البيان، وأصحاب الرموز رمزوا لأمرين لتوقع الضرر أو لعدم الاحترام.."[24]، وربما يكون أكثر استيعابا لشعرية الأسلوب الرمزي حين يتكلم عن التجلي والتحول فيقول: "... تنوعت اللطائف، فتنوعت المآخذ، فتنوعت المعارف، فتنوعت التجليات، فوقع التحول والتبدل في الصور في عيون البشر... وهذا التحول يتجه نحو شعرية الرمز والإشارة التي تصبح فيها "المعرفة

[23]- تيري إغلتون، نظرية الأدب، ترجمة ثائر ديب، دار المدى،دمشقط 2006،1، ص 118.
[24]- ابن عربي ن رسائل ابن عربي "كتاب التراجم" دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت) ص 44.

الخفية أنوار تشرق، فإن أخذتها العبارات، فلسان لا يعقل، وخطاب لا يفهم ..."[25].

11- أبو حامد الغزالي ورمز التناسب الجمالي الكوني:

أبو حامد الغزالي من الذين استعملوا مصطلح الرمز في كتابه المقصد الأسنى الذي يفسر فيه الجمال من خلال نظرية التناسب التي تبدو في كل شيء في نظام جسم الإنسان، وفي نظام الكواكب، وفي سائر المخلوقات، وأساس جمال التناسب ودرجته متوقفة على مدى النجاح في اختيار الموقع المناسب للشيء المناسب، والمرجعية الجمالية الحقيقة في درجتها الكاملة تعود إلى التدبر والتعمق في معرفة أسمائه الحسنى يقول: "وبالجملة فينبغي أن تعلم أنه لم يخلق شيء في موضع إلا لأنه متعين له، ولو تيامن عنه، أو تياسر أو تسفل أو تعلى لكان ناقصا أو باطلا أو قبيحا أو خارجا عن المتناسب كريها في المنظر.. قال الله عز وجل فيهم: :" سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم "[26]، ومن أين لك أن تكون ممن قال فيهم :"وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض "[27]، وأنى تفتح أبواب السماء لمن استغرقه هم الدنيا، واستعبده الحرص والهوى فهذا هو الرمز إلى تفهيم مبدأ الطريق إلى معرفة هذا الاسم الواحد وشرحه يفتقر إلى مجلدات..." [28]

وأبو حامد الغزالي في إدراكه للعلاقة بين الكلام وأفعاله وبخاصة الكلمات الدالة على الإنجاز، وبهذا يكون من الذين ساهموا، وأسسوا البعد العلائقي الثالث في السياقات المقامية للخطاب، والتي تمثل مجال اللسانيات

---

[25]- ابن عربي ن رسائل ابن عربي، ص 53.

[26]-41 سورة فصلت الآية 53.

[27]-6 سورة الأنعام الآية 75.

[28]-أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، قبرص، ط1، 1987، ص: 99.

التداولية، ولا يخفى أن الفهم الأخير لدور الألفاظ وعلاقاتها في الخطاب في قوله: "إن الأسامي المشتقة من الأفعال لا تفهم إلا بعد فهم الأفعال، وكل ما في الوجود من أفعال الله تعالى." [29]، ومن ثم فإن الغزالي يعمم قضية المجاز العقلي على كل الأفعال التي تنسب إلى غير الله، وهكذا يكون الرمز معرفة الرجوع إلى الأصل الدلالي الحقيقي، ومن ثم يكون الرمز رياضة روحية تجبر الروح على تذكر ما نسيته في نزولها الطيني الأرضي، وهذا يتقاطع معرفيا مع نظرية المعرفة الأفلاطونية التي كانت تذهب إلى جعلها مجرد تذكر النفس لما كانت تعرفه في عالم المثل.

كما يحاول تقديم التخوم المعرفية التي يسعى الرمز من خلالها استعادة أجواء الصورة الروحية الأصلية النقية الصافية التي كانت عليها في الجنة يقول: "وأما الروحاني وهو النفس المدركة العاقلة من الإنسان فإنها إن صفيت بالمواظبة على العبادات، وزكيت بمجانبة الهوى والشهوات، وغذيت بغذاء العلوم والمعارف المتلقاة من الأئمة الهداة اتحدت عند مفارقة الجسم بالعالم الروحاني الذي منه انفصالها، وتسعد بالعود إلى وطنها الأصلي، ولذلك سمي رجوعا فقيل ارجعي إلى ربك راضية مرضية وهي الجنة وإليه وقع الرمز بقصة آدم وكونه في الجنة.." [30]

12-رمزية الألوان والعطور والأجواء الروحية:

وقد أكثر أبو حامد الغزالي من ذكره للرمز والإشارات في تفسيره لكثير من الآيات القرآنية بمنهجه التأويلي الصوفي المفتوح والمتجاوز لكل الضوابط النقلية يقول:" في التنبيه على الرموز والإشارات التي يشتمل عليها القرآن لعلك

[29]-أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى، 1987،ص: 99

[30]-أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية، تحقيق عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية،الكويت، (د.ت) ص: 45.

تطمع في أن تنبه على الرموز والإشارات المودعة تحت الجواهر الذي ذكرنا اشتمال القرآن عليها..."[31]

ثم يعود ليفسر ألقاب تقسيم القرآن تفسيرا تأويلا صوفيا يقول:"في وجه التسمية بالألقاب التي لقب بها أقسام القرآن ولعلك تقول أشرت في بعض أقسام العلوم إلى أنه يوجد فيها الترياق الأكبر، وفي بعضها المسك الأذفر، وفي بعضها الكبريت الأحمر إلى غير ذلك من النفائس فهذه استعارات رسمية تحتها رموز وإشارات خفية، فاعلم أن التكلف والترسم ممقوت عند ذوي الجد، فما كلمة طمس إلا وتحتها رموز وإشارات إلى معنى خفي يدركها من يدرك الموازنة والمناسبة بين عالم الملك وعالم الشهادة وبين عالم الغيب والملكوت .."[32]

13- رمز الحروف والتصوف:

إن محاولة استنطاق أسرار رمزية الحروف قديمة في الحضارات الشرقية واليونانية، وكانت مرتبطة بالسحر والتنجيم والسيميا والطلسمات وغيرها؛ لكن ارتباطها بالتصوف يعد تعميقا وتغييبا لرمزية الحروف لتبقى من الأسرار التي لا يمكن الكشف عنها ،قال الشيخ داود الأنطاكي:"علم الحروف والأسماء هو علم باحث عن خواص الحروف أفرادا وتركيبا وموضوعه الحروف الهجائية ومادته الأوفاق والتراكيب وصورته تقسيمها كما وكيفا وتأليف الأقسام والعزائم... وقال بن خلدون في المقدمة :"علم أسرار الحروف وهو المسمى لهذا العهد بالسيميا نقل وضعه من الطلمسات إليه في اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة، فاستعمل استعمال العام في الخاص، وحدث هذا العلم بعد الصدر الأول عند ظهور الغلاة منهم وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على

[31]- أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن ج: 1، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1985ص: 58.
[32]- أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن ج: 1 ص: 48.

أيديهم والتصرفات في عالم العناصر ...فأما سر هذا التناسب الذي بين الحروف وأمزجة الطبائع أو بين الحروف والأعداد فأمر عسر على الفهم إذ ليس من قبيل العلوم والقياسات وإنما مستنده عندهم على الذوق والكشف.. "[33].

14- رمز الحجاج:

الحجاج مصطلح قديم وحديث مرتبط بمنطق أرسطو، كما كان في الفكر الإسلامي مرتبطا بخطاب القرآن الكريم في محاجاته للمشركين وبخاصة أهل الكتاب، وبالمناظرات بين الفرق الكلامية، وأصحاب المذاهب الفقهية، وبالمعارضات والنقائض عند الشعراء، وفي العصر الحديث ارتبط باللسانيات التداولية، وبخاصة عند ديكر وانسكوبر وغيرهما.

15 . الرمز والرمز المضاد العقائدي:

يرى ابن تيمية في هروب المتصوفة إلى الرمز بدوره فساد العقيدة يقول:هذا رأى " يناقض ما عليه المسلمون في الظاهر، فإنه يجعل هذا مما يشار إليه ويرمز به، ولا يباح به، ثم إن كان معظما للرسول والقرآن ظن أن الرسول كما يقول بذلك لكنه لم يبح لأنه مما لا يمكن لبشر أن يبوحوا به، ويحكم على رمزية العقيدة بفساد العقيدة، ويورد ما قاله صاحب منازل السائرين الذي يرى أن التوحيد على ثلاثة أوجه ويهمنا الوجه الثالث الذي ينكره ابن تيمية ،وهو توحيد خاصة الخاصة "اختصه الحق لنفسه، واستحقه بقدره، وألاح منه لائحا إلى أسرار طائفة من صفوته، وأخرسهم عن نعته، وأعجزهم عن بثه والذي يشار به إليه على ألسن المشيرين أنه إسقاط الحدث وإثبات القدم على أن هذا الرمز في ذلك التوحيد علة لا يصح ذلك التوحيد إلا بإسقاطها...." [34]

[33]-مصطفى الفسطنطيني، كشف الظنون ج: 1 ص: 650.
[34]- ابن تيمية، منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 346.

ويذهب المذهب نفسه صاحب تبليس إبليس حيث يرد على من لا يحبب النظر غلى السماء من المتصوفة وذلك يخالف ما جاء في قوله تعالى: "أولم يروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها" وقال: "قل انظروا ماذا في السماوات والأرض"، وفي هذا رد على المتصوفين، فإن أحدهم يبقى سنين لا ينظر إلى السماء، وقد ضم هؤلاء إلى ابتداعهم الرمز .."[35]

16- الرمز المضاد للرمز المضاد العقائدي:

هذا خطاب جدلي بين الفقهاء حول مسائل عقدية استخدم فيها الرمز المضاد للرمز المضاد وبخاصة ما جرى بين ابن تيمية والمتصوفة وبعض الفقهاء."[36]

فالجدل بين الروافض وغيرهم كثيرا ما يكون الترميز اللساني، وغير اللساني وسيطا في الحجاج بينهما "قال وآمنوا بالله ورسوله جمع بينهما بواو العطف للشركة، ولا يجوز هذا في حق غيره ..وأعلم أن ما ذكرته من الرمز إلى الصديق والفاروق رضي الله عنهما، وإن في إشعار بأنه رافضي هو كذلك وفي الرد على الرافضي أنه رافضي..وفي هذا الكتاب رمز إلى أنه من القائلين بتناسخ الأرواح وبعض أتباعه.."[37].

كما كان الترميز وسيطا مفضلا للحجاج بين الفقهاء يقول أحدهم "... بيان زندقة من قال أن روحه فنيت، وإن جسده صار ترابا وبيان زيغ ابن تيمية وحزبه في جواب الفتوى التي زعم أنه سئل عنها فقال في جوابه: "الحمد لله رب

---

[35]-أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، تلبيس إبليس، تحقيق السيد الجملي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1985، ص: 354.

[36] - أبي بكر الدمشقي، دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى السيد، تحقيق محمد بن زاهد الكوثري،المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، (د.ت) ص: 62.

[37]- أبي بكر الدمشقي، دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى السيد، تحقيق محمد بن زاهد الكوثري،المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، (د.ت) ص: 63.

العالمين من استغاث بميت أو غائب من البشر بحيث يدعوه في الشدائد والكربات، ويطلب منه قضاء الحاجات ..فإنه ضال مشرك.. وما فيه من الرمز إلى تكفير الأنبياء وتضليلهم، والتلبيس على الأغبياء بقصة عمر رضي الله عنه، وليت شعري من أي الدلالات أن من توجه إلى قبر سيد الأولين والآخرين وتوسل به حاجة الاستسقاء أو غيرها يصير بذلك ظالما ضالا مشركا كافرا هذا شيء تقشعر منه الأبدان، ولم نسمع أحدا فاه بل، ولا رمز إليه .. قبل زنديق حران ..."[38].

17- رمز الإيجاز والإطناب:

ويبسط الإليجي في كتابه المواقف خطابا يظهر من خلاله بعض صفات الألفاظ والعبارات والجمل الموجزة والمعاني المستغلقة التي لا تحمل الفهم الظاهري بل تتجاوزه إلى دلالات ترميزية متفاوتة الخفاء تتم أساسا بأسلوب الإيجاز، أو بترميز واضح يتم بالإطناب يقول: "هل أرى من فطور أي للأوضاع التي ينبغي أن يحافظ عليها رامزا مشيرا بإيجاز العبارة مشبعا موضحا بأطنابها في مقام الرمز والإشباع.."[39].

"وقد اعتذرت الفلاسفة بمثل عذرهم في هذا قول الفلاسفة أنه ليس في مقدور الله تعالى أحسن من هذا العالم مع أنه على كل شيء قدير لأنهم زعموا أنه لو كان في مقدوره لا وجده على الفور وإلا كان بخيلا تعالى عن ذلك، وأجيب عليهم بمثل ما أجيب على المعتزلة من إن حكمة الله تعالى أعظم من أن يحيط بها

[38]-الإليجي، كتاب المواقف ج: دار الكتب العلمية، بيروت،19921 ص: 25.
[39]-الإليجي، كتاب المواقف ج: 1 ص: 25

خلقه..فقد وقع الاتفاق على نفيه في الحقيقة .. ولا غنى عن الرمز إليها على سبيل الإيجاز الكثير.. "[40].

18- خطاب الرمز عند المفسرين:

تناول أغلب المفسرين مفهوم الرمز لغة واصطلاحا عند تفسيرهم لكثير من الآيات التي حاولوا فهما بوسائل الرمز ومنها الرمز اللغوي وغير اللغوي..

وفهم لفظ الرمز من العبارة (إلا رمزا) في سورة الكهف عند أغلب المفسرين بأنها تعني "تحريك الشفتين باللفظ من غير إبانة بصوت، وقد يكون إشارة بالعين والحاجبين"[41].

19-الرمز حركة تفشي ما في نفس الرامز:

وقوله تعالى :"آيتك ألا تكلم الناس" الآية قال الطبري وغيره لم يكن منعه الكلام لآفة ولكنه منع محاورة الناس، وكان يقدر على ذكر الله، ثم استثنى الرمز وهو استثناء منقطع والكلام المراد في الآية إنما هو النطق باللسان لا الإعلام بما في النفس والرمز في اللغة حركة تعلم بما في نفس الرامز كانت الحركة من عين أو حاجب أو شفة أو يد أو عود أو غير ذلك..". [42].

كتاب كريم من لدن سميع عليم بيد انه لا وصم فيه، ولا عيب واليه الرمز بقوله تعالى ذلك الكتاب لا ريب فيه نور وهدى للمتقين.." [43]

20- الرمز العددي:

الأعداد من الرموز التي حاول كثير من المفسرين قديما الوقوف عندها في القرآن الكريم وقراءة دلالتها رمزيا، وأحيانا يعتمد هذا التفسير على الافتراض

---

[40]- محمد بن إبراهيم الحسني، إيثار الحق على الخلق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 ، 1987، ص: 270.

[41]- التبيان في تفسير غريب القرآن ج: 1 دار الكتب العلمية، بيروت،1992ص: 146.

[42]- تفسير الثعالبي ج: 1 دار الكتب العلمية، بيروت،1992 ص: 264

[43]- تفسير الثعالبي ج: 4 ص: 457

والتأويل البعيد، ونضرب لذلك مثلا بتفسير صاحب روح المعاني يقول إن: "حروف هذه السورة غير المكرر اثنان وعشرون حرفا وكذا حروف الفاتحة، وذلك بعدد السنين التي أنزل فيها القرآن، فليراجع، وبعد أن يوجد الأمر كما ذكر لا يخفى كون سنين النزول اثنتي وعشرين سنة؛ قول لبعضهم والمشهور أنها ثلاث وعشرون سنة، ومثل هذا الرمز ما قيل أن أول حروفه الباء وآخرها السين فكأنه قيل بس أي حسب ففيه إشارة إلى أنه كاف عما سواه ورمز إلى قوله تعالى:" ما فرطنا في الكتاب من شيء".[44]

21- رمز الزمن:

واستخدام عبارات التأجيل للدلالة على الحسم: وفهمت على أنها صورا من صور الرمز، وهكذا نظروا إلى أن "بعض الألفاظ الدالة على الزمن أدرجت ضمن عملية الترميز في دلالتها في الخطاب انطلاقا من قوله تعالى (متى هذا الوعد) .. وهو عذاب يوم بدر وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك كالجزم بها ،وإنما يطلقونها إظهارا لوقارهم وإشعارا بأن الرمز منهم كالتصريح من غيرهم وعليه جرى وعد الله تعالى ووعيده."[45]

22- المعاريض من الرمز:

نظر بعضهم إلى خطاب المعاريض بكونه كنائيا رمزيا، وهذا الخطاب مبني على إجابة حرفية غير مقصودة وغير حرفية مقصودة، هي حرفية بالنسبة للسائل وغير حرفية بالنسبة للمجيب، وقد عدها بعضهم نوعا بلاغيا ذكيا غريبا فيه اطمئنان وراحة نفسية لما يريد الإنسان التستر عنه، وصاحب المستطرف في كل فن مستطرف يستعرض مجموعة من خطابات الإجابة عن أسئلة التي تبنى

[44]- محمد الألوسي، روح المعاني ج: 30، دار إحياء التراث، بيروت، (د.ت) ص: 287.
[45]- تفسير البيضاوي ج: 4، دار إحياء التراث، بيروت، (د.ت) ص: 276.

في نظامها الدلالي على قدر من حيل التكتم بألفاظ وأساليب كنائية ترميزية، ومنها ما اسماه الإبشيهي بـ "غرائب الكنايات الواردة على سبيل الرمز ،ومنه ما يجده المتستر في أمره من الراحة في كتمان حاله مع لزوم الصدق ورضا الخصم بما وافق مراده لأن في المعاريض مندوحة عن الكذب.."[46]

ويمكن لنا في النهاية هذا الإشارة إلى مجموعة من الحقائق و ربما أهمها: أن الرمز بمفاهيمه ونظرياته كما حددته مجموعة من الفلسفات الحديثة والعلوم الإنسانية وعلوم اللغة و المناهج النقدية الحداثية كالتأويلية و البنيوية و الموضوعاتية والسيميائية والأسلوبية والسردانية والبلاغة الجديدة كانت جذورها الفكرية وأسسها المعرفية في التراث العربي بمفهومه الواسع كما رأينا ذلك بوضوح في التراث الغربي العام الثقافي والفكري.

كما أن اللغزية والتعمية التي شاعت في التراث العربي كان ينظر إليها بأنها خطابات ليست جادة بل كانت من فضول الكلام، ومنشطة للمخيال الأدبي وهامشه، وكانت وظيفتها ترفيهية للحس الجمالي ورياضية للفكر وموسعة للمجال الثقافي، وملطفة للجو النفسي، ومعززة للود الاجتماعي، ولم ينحصر وجودها عند الشعراء والنثريين العاديين بل كانت تجذب إليها كبار الشعراء والنثريين، وتفتح شهيتهم للمنافسة والتحدي في هذا النوع من الخطابات المستغلة في دلالاتها.

إن المنهج التأويلي و بعض الفلسفات الدائرة في فلكها تجد ضالتها في هذه الخطابات التي تشترك كلها في استعمالها غير الحرفي للغتها لتستشهد بها على نظرياتها المعرفية وطرائقها في التحليل ومحاولة الفهم والكشف عن حقائق الإنسان المجهولة من خلال ما يختاره من أشكال وأنساق تعبيرية يشكل بها

[46]- شهاب الدين الإبشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ج: 1 ص:99- 102

كتاباته وخطاباته، ونخص بالذكر المدارس الفلسفية التحليلية والسيميائية والتأويلية والتداولية لجماعات أكسفورد وفرانكفورت وفيينا وفرنسا وأمريكا.

قائمة المصادر والمراجع

1 – صديق حسن القنوجي، أبجد العلوم ج: 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978.

2–انظر ابن رشيق العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،ج1، دار الجيل، بيروت، ط1، 1972.

3 – ابن منظور ، لسان العرب ج: 5 دار صادر، بيروت، ط1 (د.ت).

4 – محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح تحقيق محمود خاطر، دار المعارف بمصر،1976.

5– محمد المناوي، التعاريف، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر،بيروت،ط1 1410هـ .

6– علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1405 هـ.

7– زكريا بن محمد الأنصاري، الحدود الأنيقة، تحقيق مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت،ط1411،1هـ.

8– القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق، عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، ط5، 1400هـ–1980م.

9– ابن جني، الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي، تحقيق محسن عياض دار الحرية للطباعة بغداد 1973 ص 27.

10 . ابن الأثير، المثل السائر ج: 1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت،1995.

11- ابن رشيق العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، دار الجيل، بيروت، ط1،1973.

12 - سورة آل عمران :41

13 -إسحاق بن إبراهيم بن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق حنفي محمد شرف، مكتبة الشباب ، القاهرة، 1969.

14 - أعلام النبوة ج: 1.

15 - شهاب الدين الإبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ج: 1، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986.

16- تيري إغلتون ،نظرية الأدب، ترجمة ثائر ديب، دار المدى، دمشق، ط1،2006.

17- ابن عربي ن رسائل ابن عربي "كتاب التراجم" دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت) ص 44

18 - سورة فصلت الآية 53.

19 - سورة الأنعام الآية 75.

20-أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، قبرص، ط1، 1987.

21 - أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن ج: 1، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1. 1985.

22 - مصطفى الفسطنطيني، كشف الظنون ج:1، دار الكتب العلمية، بيروت،1992.

23- ابن تيمية، منهاج السنة النبوية ج: 5، تحقيق محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط1، 1406هـ.

24 –أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، تلبيس إبليس، تحقيق السيد الجملي، دارالكتاب العربي، بيروت، ط1، 1985.

25 – أبي بكر الدمشقي، دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى السيد، تحقيق محمد بن زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، (د.ت).

26 – أبي بكر الدمشقي، دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى السيد.

27–الإليجي، كتاب المواقف ج: 1، دار الكتب العلمية، بيروت،1992.

28– محمد بن إبراهيم الحسني، إيثار الحق على الخلق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987 29– التبيان في تفسير غريب القرآن ج: 1.

30– تفسير الثعالبي ج: 1 دار الكتب العلمية، بيروت،1992.

31– محمد الألوسي، روح المعاني ج: 30، دار غحياء التراث، بيروت، (د.ت).

32– تفسير البيضاوي ج: 4 دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.

33 –T. Todorov ; théorie du symbole , Editions du Seuil , paris ,1977.